

المدرسة العربية (الجزائرية) في مواجهة ظاهرة العنف المناهج التربوية بين فكر الاختلاف وثقافة الائتلاف

أ. عبد الله صحراوي

قسم علم النفس، التربية، الأورطونيا
جامعة فرحات عباس

Résumé :

Comme toute société évoluant vers l'épanouissement de ces citoyens, l'Algérie a besoin d'un système éducatif performant, réunissant toutes les conditions nécessaire et parcourant à assurer son développement sur tous les plans ainsi qu'à sa cohésion sociale.

المخلص :

إذا كان لابد لأي نظام تربوي أن يوافق ضربا من الوضع البشري يستجيب فيه لتطلعاته وأماله، فإن المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات العربية، وفي محاولته الإعتاق من دائرة الإنكسار التي ظلت تحيطه، لابد لتطوره وتنميته من مدرسة تتوافق خصائصها ومتطلبات التطور، والتقدم، والإنبعث الحضاري، لتحقيق الأمن والسلم والتماسك الاجتماعي في ثلاثة شرطية لازمة لأي انبعث مطلوب

مقدمة :

إذا كانت الحكمة ضالة المسلم أخذها أنى وجدت، فليس غريبا أن يتصدر طرحنا هذا قول لأحد أكبر مفكر عصرنا ونعني به روجيه غال Roger Gall، بالرغم مما في تاريخنا ومورثنا الحضاري من أعلام في الفكر والعلم يفوقونه، وتسمو أفكارهم وأقوالهم عما أنتجه هو وبنو جلدته من قول أو فعل. ولكن المعرفة الإنسانية تراثا مشتركا لجميع الناس يبيح لنا العقل والشرع الانتفاع بهما وطلبهما (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع) (النووي، 1395)، ومن باب أن يكون الشاهد من أهلها ضمانا لنزاهة الحكم، فإننا ونحن بصدد تحليل الواقع التربوي في مجتمعنا الجزائري وتشخيصه، ومن ثمة رسم استراتيجياته المستقبلية وتحديد ملامحه النوعية، اعتقادا منا بأن ما آل إليه المجتمع من قصور وتخلف في الاقتصاد والعلم، وتشرذم وتفكك في الاجتماع والسياسة وانحطاط واضمحلال في القيم والأخلاق، مرده جميعا إلى النظام التربوي الذي لم يكن يوافق أهداف المجتمع ويستجيب لحاجاته وتطلعاته، لقد قال روجيه غال يوما : "إنه لأمر واقع أن كل نظام تربوي يوافق نظاما اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا

ودينيا، ويوافق ضربا من الوضع البشري إنه مصنوع ليستجيب لحاجات العصر وأفكاره وأعرافه وتقاليده". (Roget Gall). 2.

إن وقفنا اليوم في مفترق الطرق تحتم علينا تحديد الاتجاه والانطلاق فيه، فإذا كان يفترض في التربية أن تكون مطوعة لخدمة التنمية، وخدمة لها في أوجهها المتعددة (بشريا وماديا)، فإننا وبعد أزيد من أربعة عقود على بداية مشروعنا التنموي لا تزال إشكالية التنمية تطرح نفسها كما بدأت أول يوم، بل زادت انتكاسات العقدين الأخيرين حدة وتعقيدا، حين أفصح الواقع وأبان عن سلوكيات وممارسات مست مقومات التماسك الاجتماعي والسلام والأمن والنظام العام، وهي الشروط الأولية لأي تطور وانبعاث جديدين. ومن هنا كان حريا بنا في هذه الوقفة التصالحية مع الذات ألا نبتعد/ ونحن نفتش في أسباب ذلك/ عن منظومتنا التربوية، أن نفتش في طبيعة التربية، وفي شكل علاقتها بالمجتمع، وفي أنظمتها الرسمية وغير الرسمية من مدرسة ومسجد وأسرة... الخ، في مناهجها وبرامجها وأشكال العلاقات القائمة من خلالها، وفلسفة ممارساتها وواقعها، فإذا كانت التربية وهي عملية نمو للفرد تتناول شخصيته من كل جوانبها فإنها في المقابل لازمة للمجتمع حين تعمل على "العناية والاحتفاظ بتراته الثقافي وتعزيزه وتدعيمه، ثم تنقيحه وتطويره لأجل استكمال تنميته الاقتصادية والاجتماعية" (رابح تركي).

1990 ص 29). 3.

إذا كانت كذلك فهي وسيلة لتغيير المحيط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وما فيه من ممارسات. وأمام الهزات التي ضربت بلدنا ومجتمعنا في عمقه الاجتماعي، وبالنظر إلى واقع المدرسة الذي "يحتاج إلى تشخيص وتحليل ومراجعة وإنصاف، ثم إصلاح يتناول المناهج والبرامج والوسائل ويمس الغايات والأهداف والنظام" (رابح حدوسي. 2000 ص 06). 4.

وفي مفترق الطرق الذي أشرنا إليه لابد من الاختيار بين أمرين :

- إما مدرسة تسندها تربية تحقق التوافق والتآلف مع الهوية والذات، وتمد الأفراد بشروط الإنعتاق من أسر الجمود والتخلف تحقيقا للعيش الكريم في الحاضر والمستقبل يتوافق مع مقتضى الاستخلاف في الأرض. (تطويع المادة لخدمة الإنسان).

- وإما مدرسة تغذيها تربية تعمل على إنتاج التخلف وتكريسه بفكر جامد وعقلية لا تطويرية تعيش في صراع مع الذات ومع الآخرين.

لقد أصبح واضحا أن " ليس أفضل من المدرسة لمواجهة التحديات المفروضة فمنها ينطلق كل تغيير في بناء العقول والذوات" (إسماعيل ألمان. 2003 ص 1) 5، ومن الواضح أيضا أن إصلاح المدرسة يمر حتما بإصلاح

مناهجها، وتعديل محتويات مناهجها وبرامجها وظرق وأساليب تدريسها وعلاقاتها البيداغوجية ونمط إدارتها التعليمية والمدرسية، ففي عصر كالذي نحن فيه وكالذي نتجه إليه لم يعد معقولا حصر أهداف المدرسة في نقل المعرفة فذلك وبالنظر لتسارع وثيرة التراكم المعرفي وضخامته لم يعد معقولا (وهو غير ممكن)، وإنما أصبح ضروريا الامتداد بأهدافها نحو تعليم الأفراد كيف يتعلمون وكيف يمارسون حياتهم باقتدار في ضوء تعقيداتها المتزايدة واتسامها بطابع المعرفة وتطبيقاتها التكنولوجية.

الأزمة التربوية، تاريخ وإشكالية :

إن ما اعتري المجتمع الجزائري في نهاية الألفية الثانية من انكسارات لا تزال شواهدا قائمة على كل الأصعدة لا يفسر إلا من خلال فشل المشروع التربوي الذي أنيط به إيجاد الفرد الإنسان القادر (معرفيا وسلوكيا) على تفعيل آليات التنمية، وتطوير أدواتها ووسائلها لتحقيق أهداف المجتمع وخدمته في حاضره ومستقبله، في ظل الاقتدار على صنع الرخاء والأمن والسلام.

فالمظهر الديني الذي تغطت من ورائه السياسة لترسم الصورة القائمة التي رأيناها ورأها الناس في أشكال التدمير الداخلي، والسقوط المتسارع لقيم الدين الحنيف والأخلاق السمحة، ففتهاوى أسس التماسك الاجتماعي ليعم البلاء ويطل الأمن والأنفس والثمرات (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) (البقرة، الآية 155) ما هو إلا مظهر زائف ومزيف، فلا العقل ولا الشرع يبيحان للناس أن يباشروا تخريب بيوتهم بأيديهم، وأن يمارسوا صناعة الموت بدل الحياة، والتقهقر بدل التقدم، والترويع والتجويع والتخويف بدل إشاعة الأمن والسلم والإخاء والتصالح، وقيم الخير والعدل والإحسان التي قام على أساسها الدين ونادى بها الشرع ووجب على المدرسة أن تغرسه في عقول الناس.

لقد كان تحريف الدين، وتعطيل الفكر، والتقاعس عن العمل هي ما أوصلنا إلى ما نحن فيه، وتبرير ما حدث بالعامل الاقتصادي لوحده لا يصب إلا في خانة التفسير المادي الذي لا ننكره لكننا نعتقد أنه لا يتوافق وقيم المجتمع القائمة على قاعدة أن الأزمة تلد الهمة ولا تورث الانكسار، وتدفع إلى التشمير عن الساعد لمباشرة العمل لا إلى إشهار السلاح وإشاعة القتل، وتدفع إلى التكاثر والتصالح بدل التناحر والنقائل. فلم يكن ذلك كله مجرد صدفة إنما كان بفعل الإنسان نتاج المشروع التربوي الذي فشل في إحداث النقلة النوعية بالرغم من نجاحه الكمي المشهود له، حين بقي الفرد عاجزا عن امتلاك عقلية تطويرية، مكرسا لنمط من التفكير الساذج، وأنواع من الفهم السطحي لأمر الدين والدنيا، فتخلف بذلك في المادة

والفكر، وبقي أسيرا للحظة تاريخية لا يملك لنفسه أن يتجاوزها، يعيش ماضيه في حاضره من خلال التوقف من دون إدراك أفهم عند فكر لا يملك حتى أن يضعه في سياقه التاريخي، فكرا جنح به نحو التطرف والغلو في الأمور عامتها وخاصتها أغلق من خلاله على نفسه باب الاجتهاد وإعمال الفكر.

إن فكر الاختلاف الذي يفسد المودة ويقود إلى التدمير لا يمكنه أن ينمو إلا في ظل عقلية جامدة لا تطورية، لا تستسيغ رؤية الآخر فضلا عن تقبله واحترامه، ومنشأ ذلك تربية تقوم على القهر والتمييز والتسلط، بدل الاحترام والتكامل، فحين لا نجد لعظماء من أمثال الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، أو الشيخ عبد الحميد بن باديس،... وغيرهم كثيرون، ولا لفكرهم الراقي انتشارا ولا مشاريعهم في الإصلاح والانبعث نصرة وأنصارا بين عامة الناس وخاصتهم، نعرف أن هناك خلا في منظومتنا الفكرية مرده إلى النظام التربوي والتعليمي وأساسه المدرسة، وحين ذاك لا بد وأن نضعها موضع التساؤل والمساءلة بهدف تصحيح الخلل.

إن في ذكرى الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس (ذكرى يوم العلم) التي نقف فيها اليوم لنبحث أمر المصالحة مع الذات ومع الهوية ومع التاريخ/ مع الماضي والحاضر والمستقبل/ فيها من العبرة ما يمكننا من وضع الأصبع على الجرح، فعمل الإمام ومشروعه الذي بدأه ولم ينته جدير بأن نستشف منه معالم الطريق نحو مستقبل أرقى وتنمية للإنسان والأرض أجدى وأبقى.

فهو أقام عمله رحمة الله عليه- وبنى مشروعه انطلاقا من التأسيس لتصالح مع الذات يعيد للفرد الجزائري ثقته بنفسه، وإيمانه بهويته، وذلك كان، حين نجح الأمر في بعث تلك المقومات التي قادت في النهاية لتحرير الأرض، وكان بمقدورها (لوقدر لها أن تستمر) أن تحرر الإنسان بعد ذلك، فقد علمنا الإمام انطلاقا من فهمه السليم أن الدين/ بالرغم مما حملناه ونحمله في أزمتنا هذه/ يحتم الإصلاح ولا يبيح الإفساد، وأن صناعة الحياة لا الموت هي وظيفة المسلم في الدنيا "إذا قامت الساعة وببئ أدحكم فسيلة فإن استطاع غرسها قبل أن تقوم فليفعل" (حديث شريف)، ويجعل إشاعة الأمن والأمان من قواعد الدين فيحرم الترويع والتخويف والتجويع للمؤمنين ولغيرهم من الأمنين "لا يحل لمسلم أن يروع مسلما" (السيوطي، 206) ويطالب بالعدل والإحسان، ويربط العبادة بالعمل فيجعله سنامها، ليطالب بالإتقان المبني على العلم والمعرفة وفق قاعدة (أن لا عذر لجاهل) ويجعل طلبهما أمرا شرعيا "طلب العلم فريضة على كل مسلم" (حديث شريف) 7.

إن الشواهد في الإسلام كثيرة لا سبيل لحصرها، وجليّة لا تخطئها العين البصيرة، في القرآن كما في السنة وفي ممارسات الخيرين من أتباعه على امتداد

تاريخه، على روحه السمحة، وقيمه العالية التي تجعل من التصالح والتآخي والتآلف والترابط والتماسك والتعاون... شروطاً لا بد منها لإقامة المجتمع القادر على الانبعاث والتطور وهي الخصائص ذاتها التي ينبغي اعتمادها لإعادة النظر في الكثير من الممارسات التي شابتها مغالطات أفرغت التربية والسلوك من محتواهما الإنساني فضلاً عن الديني.

لا بد حينئذ أن نستلهم لمشروعنا التربوي ولمدرستنا من خير ما في التجربة الإنسانية، مبدئين بقراءة واعية لتراثنا، فقد عمل صلى الله عليه وسلم وهو يؤسس لدولته الجديدة بالمدينة المنورة على إيجاد الجوال آمن المستقر، الذي يمكن من تفجير طاقات الأفراد وذلك في مؤاخاته (ص) بين الناس، وفي عهوده ومواريثه مع غير المسلمين، فعلمنا بذلك أن لا تنمية ولا بناء إلا في ظل الأمن والتصالح والوئام، ويوم فتح مكة وهو يرسم للدولة الجديدة والإنسان الجديد طريقهما لم يشذ عن قاعدة إشاعة الصلح والتصالح بين الناس، فما زاد على أن قال للذين كانوا ينتظرون القصاص "أذهبوا فأنتم الطلقاء" (هارون، ص 258)، وجعل أمر ذلك قاعدة شرعية قائمة إلى يوم الدين، زكاها يوم حجة الوداع حين وضع الدماء التي كانت وأبطل الأخذ بثأرها، وبدأ بنفسه قبل الناس، فقال عليه الصلاة والسلام في خطبته الشهيرة وبعد حديثه الطويل عن حرمة الدماء والأموال والأنفس: "... وإن أول دم أضعه دم الحارث بن عبد المطلب..." (هارون، ص 326، 1986) 9 ليسم بذلك لنا منهاجاً تربوياً يقر الاختلاف ما دام رحمة فلا يمنعه إذا لم يفسد للود قضية، ويضعه ضمن الأطر والحدود التي تجعل منه رديفاً للتعاون والتآلف، لا نداً له ولا مغالباً وفق قاعدة (لنتعاون فيما اتفقنا فيه وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه).

يومها استطاع الفرد المسلم بفهم سليم للدين والحياة أن يقيم حضارة، كان منطلقها الأساس مشروعاً تربوياً حرر الإنسان أولاً فأوجد حرية في الفكر والعمل، ملأت الدنيا وشغلت الناس ووسعت الدنيا والدين معا حتى قال أبسط الناس يومها لكسرى الفرس (جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام)، وبالمشروع ذاته أمكن إيجاد الفرد القادر على تطويع الإمكانيات على بساطتها ليربط أصقاع الصين بأطراف أوربا الغربية، في أمة واحدة ودولة واحدة أقامت حضارة لا تتساهل الدنيا شواهدا لا تزال قائمة كان من أبرز مقومات نجاحها :

1- فهم سليم للدين وتوجه صحيح نحو الدنيا يحقق التوافق مع الذات، ويجعل احترام الآخر مبدأ إيمانياً، والتكامل مع عناصر البيئة من شروط صحة الوجود.

2- إنسان واع بواقعه، مؤمن بمستقبله، عارف بحقيقته وأهدافه مشارك للآخرين في الإعمار والبناء.

3- أمن في الأرض، وحرية في الفكر، وتصالح مع الذات ومع الآخر، اجتمعت لتخلق مناخا يستوعب العناصر الضرورية للفعل التنموي ويسرع تفاعلها.

إن الجانب المادي وعلى أهميته ليس السبب الأساس والوحيد في إخفاق مشروع المجتمع الذي أنيط بالتربية غداة الاستقلال، فتجارب الأمم تعلمنا أن الإنسان لوحده أكثر العوامل أهمية في صناعة التنمية وبعثها (وهذه اليابان تعلمنا تجربتها وقد انطلقت حديثا أن تنمية الإنسان تحقق المشروع التنموي في شقه المادي في أبسط الحالات) كما أن تجربة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال مشروعه التربوي تعلمنا كيف يمكن للإنسان أن يحيا بعد موت، فمن قلة في العدد والعدة أمكن تحرير الأرض وافتكاكها من بين أعنى قوى الاستعمار الاستيطاني، ومن ثانيا كلمات قليلات (الجزائر وطننا، والإسلام ديننا، والعربية لغتنا) انبعثت في أوصال المجتمع مقومات حياة جديدة، غير أن الانتكاسة التي حدثت، والنكوص الارتدادي الذي تم بعد ذلك أوصلنا نهاية الألفية الثانية إلى ما نحن عليه، فما العمل؟ على منوال خرائط الطرق التي تتم هنا وهناك لابد لنا من خارطة طريق (والتعبير وإن كانت له دلالاته إلا أننا نسمح لأنفسنا باستعارته في هذا المقام) لاستراتيجية تنموية سريعة وعاجلة لكنها فعالة وناجعة، فمن أين نبدأ؟

إن حقيقة الأزمة وأسبابها تجعلنا نقول ونحن على ثقة من ذلك أن التربية عامة والمدرسة على وجه الخصوص هما المكان الأنسب والمنطلق الحقيقي لأي انبعاث حضاري جديد. فما شكل التربية التي نريد؟ وما ملامح المدرسة التي نبغي؟ وما دورهما في التنمية المستقبلية القائمة على الأمن والاستقرار والتماسك الاجتماعي، وهي الشروط الواجبة لأي عمل تنموي منشود. ونمضي مستطردين في تساؤلاتنا لنقول: هل للمدرسة فيما لوأردنا دورا في إرساء وتثبيت ثقافة السلم والحوار والائتلاف وقبول الآخر وتقبله دون خوف من تعثر أذويان؟ هل لمناهجنا التربوية علاقة باكتساب القدرة على العيش وفق المتغيرات المحلية والعالمية؟ هل تملك أن تمد الناس والمجتمع بمقومات الائتلاف والتعاون بدل الاختلاف والتصادم، فتجعله سلوكا جمعيا يؤسس لتماسك لا ينهار أمام الصدمات لكنه يتكيف ليشدد عوده فيزداد تماسكا؟.

إن البعد التربوي والأخلاقي في العمل التنموي هو ما يسندنا في طرحنا لهذه التساؤلات، وتغيبه وإهماله في اعتقادنا هو الذي أدى إلى هشاشة السلم الاجتماعي، حين أضحى الاختلاف القائم على الجدل الذي يبتعد عن التي هي

أحسن، سلوكا للأفراد والجماعات، وأضحت العاطفة المبنية على الجهل بدل العقل المرتكز إلى العلم هي ما يتحكم في تعاملاتنا وسلوكاتنا مع أنفسنا ومع الآخرين، ذلك بالضبط ما يحدث في أشكال العلاقات داخل الأسر وفي الممارسات الحزبية كما في التنظيمات الاجتماعية الأخرى، وفي شكل العلاقة بين الأفراد وهيئات الحكم وسلطاته، إنه نتيجة المفهوم القاصر الذي اعتمدناه للتربية، والذي لم يرق يوما إلى درجة تمكين الفرد من امتلاك آليات ممارسة الحياة بشكلها الفاعل والمطلوب حاضرا والاستعداد لها مستقبليا والذي أدى بدوره إلى عجز المدرسة، وقد تضاعف دورها/بعد انحصار أنوار مؤسسات المجتمع الأخرى لصالحها كالأُسرة والمسجد و.../ عن تنشئة الفرد وإعداده لمستقبله وليس لحاضره فقط إعدادا كافيا يجعله في اتصال وتوافق دائم مع داخله ومع بيئته.

إن قضية المصالحة في المسار التنموي المنشود تصبح ضرورة لازمة لسببين :

أولهما : ضرورة شرعية، إذ لا يقبل الدين التصادم والتناحر والاختلاف القائم على الكراهية والعنف بين أبناء الأمة الواحدة.

ثانيهما : ضرورة اجتماعية فالعيش لا يتم والتنمية لا تقوم إلا في وجود الاتفاق والأمن والائتلاف.

وإلى أن نفهم ذلك فنتمكن من رسم ملامح التربية التي نريد، ونشكل معالم المدرسة التي نبغي لأبد أولا من فهم سليم لعلاقة التربية بالمجتمع، ووعي بالتحديات والأدوار التي على المدرسة أن تؤديها اليوم وغدا.

موقع التربية من التنمية وعلاقتها بالمجتمع :

إن تشخيص الواقع التنموي في الحالة الجزائرية يمر عبر تحديد علاقة التربية بالمجتمع وصولا لمقاربة أسباب الفشل ذلك أن "الملاحم النوعية للتربية المنشودة لا تتحدد إلا من خلال الكشف عن طبيعة العلاقة بين التربية والمجتمع، والتي تتحدد من خلال خيارين هما :

- التربية تشكل المجتمع ، المجتمع يشكل التربية" (أحمد إبراهيم

اليوسف، 2000، ص 08) 10

فبالنسبة للخيار الأول والذي انطلق أساسا من الغرب، وتم الأخذ به في المجتمعات النامية لأسباب تاريخية ومنها المجتمعات العربية والإسلامية لم ينتج إلا نمطا من التخلف كان من أبرز معالمه :

أ- قصور التحيزات الثقافية والفكرية عن تجاوز مقولة (التسليم بالأمر الواقع) أي (عطالة الفكر).

ب- هشاشة البناء الاجتماعي وقيامه على أساس سلطوي (باتجاه واحد).

ت- قصور عملية التطبيع الاجتماعي عن الوصول بالفرد إلى مستوى تغيير الواقع بعد استيعابه والعجز عن امتلاك آليات إنتاج الموقف وإعادة صياغة عناصره.

وكان من نتيجة ذلك أن أبقت التربية على نمط التخلف الذي ساد، لعجزها عن تزويد الفرد بعقلية تطويرية كونها :

- تربية تلقينية تعتمد الحفظ والتسميع بدل إعادة صياغة المعرفة وإنتاجها.
- تربية تطبيعية تحافظ على الموجود ولا تعمل على تغييره.
- تربية مقننة تعزز انفصال الفكر عن العمل (الواقع).

أما الخيار الثاني حيث يشكل المجتمع تربيته، فهو الخيار الذي قامت الشواهد على نجاعته، حين تعمل التربية من خلال معرفتها ببنية المجتمع ومقوماته، على إحداث الأثر داخليا فيؤدي التطوير دوره "إذ التربية لا تقوى على إحداث الأثر البارز والواسع إلا إذا أحاطت ببنية المجتمع، ورسمت خطتها من خلال مقومات تلك البنية" (أحمد إبراهيم اليوسف، 2000 ص 26). 11

لقد غاب عنا أن نجاح الغرب في مشروعه التربوي (في الشق المادي على الأقل) إنما يعزى إلى كون المجتمع هو الذي شكل تربيته، وفي حالتنا حيث تأخذ مظاهر التخلف أبعادا اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية وتشكل العقلية اللاتطويرية أساسا لتسيير دواليب التنمية، فإن التربية التي سادت خلال العقود الماضية لم يكن بمقدورها تحطيم نمط التخلف بحكم كونها من النمط الاستيرادي الذي لا يتوافق وبنية المجتمع، وقد كان من أبرز مظاهرها :

1- السلطوية التي قامت على أساسها الممارسات التربوية في المدرسة على وجه الخصوص، فأبعدتها عن مبادئ الحوار وحرية الرأي والمشاركة وتبادل الأفكار.

2- التمييز الذي طبع الممارسة التربوية والتعليمية (في الجنس والجغرافيا).
"لقد أدى مظهر السلطوية إلى تربية الأطفال تربية قمعية تعسفية فأنشأهم على الخضوع والتبعية" (يزيد عيسى الطسوري، 1998، ص 235) 12. وطبع المظهر ذاته كل عناصر المنهج حيث :

- 1- سلطوية في طرق التدريس، تعتمد الحفظ والتلقين.
- 2- سلطوية في بناء البرامج وتقنين محتوياتها.
- 3- سلطوية في التقويم وأساليبه وأدواته.
- 4- سلطوية في الإشراف.
- 5- سلطوية في العلاقات بين المعلم والطالب، تصادر حرية المتعلم في التعبير والنقاش.

فغدت بذلك "مرضا تنتشر أعراضه في أوصال المنظومة التربوية، وعناصرها كالبرامج وطرق التدريس والإشراف والنقويم والعلاقات البيداغوجية..." (عيسى الطسوري، 1998 ص 275) 13، ليكون بذلك الفرد والمجتمع ضحايا لفكر الإقصاء والاستئصال بدل أن تقوم العلاقة في ذلك كله على مبدأ التوافق والإقناع الذي يعلمنا إياه القرآن، ويقوم عليه منهج الإسلام في التربية ممثلاً في :

- التعليم الذاتي والاعتبار الفكري.

- الاعتماد على المناقشة والحوار.

ليتم ذلك من خلال :

- ترسيخ مفهوم الحوار كأساس للتحرر المعقول.

- تصويب العلاقة بين المعلم والمتعلم من خلال إعادة تعريف السلطة.

- الاهتمام بصحة المتعلم النفسية والجسدية والمعرفية.

لقد أدت تلك السلطوية في العلاقات بين المعلم والطالب إلى ظهور فكر الإقصاء فكان من نتائجها :

1- إعادة إنتاج فكر التسلط.

2- إضعاف المدرسة والنظام التعليمي بشكل عام.

3- إضعاف القيم والثقافة المحلية.

4- إضعاف التنمية وإعاقة الإبداع.

أما مظهر التمييز فقد ساهم في تفشي الأمية وصعب من وضع حق التعليم للجميع موضع التنفيذ، ليقف بذلك سدا منيعا في وجه التنمية المنشودة ومكن من :

1- إعادة إنتاج التمييز في المجتمع.

2- زيادة معدلات الهدر التعليمي (الرسوب، التسرب، الإخفاق،...).

3- تهديد الأمن الاجتماعي والتربوي.

معالم على طريق التنمية المنشودة:

1- التنمية والتربية :

إذا كان يفترض في التربية أن تتشكل ملامحها النوعية على أساس معرفتها بواقع المجتمع ومكوناته المعرفية والثقافية والمادية، لتقوم بدور التطوير وإعادة تشكيل المجتمع وصياغته وفق مقتضيات العصر والحال، فإن التنمية مثلها مثل التربية تشكل "عملية تغيير حضاري، وبديل اجتماعي واقتصادي للواقع... إنها تغيير لنمط الحياة ولطريقة ممارستها ولأسلوب تصورهما، تغيير في علاقات الإنسان بالبيئة الطبيعية والاجتماعية معا يتناول أساليب الإنتاج المادي، وأنماط السلوك الاجتماعي

ويتناول المهارات المادية والقيم الخلقية" (صابر محيي الدين، 1963، ص 102) 14، وهي بهذا المفهوم تتكامل مع التربية فلا تقوم إحداها إلا بقيام الأخرى.

إن تجاوز القصور والضعف في العمل التنموي بمجتمعنا بشريا وماديا، سوف يتحقق من خلال أمرين اثنين هما:

أولا : إعادة صياغة مفهوم التنمية صياغة تتجاوز المفهوم الاستيرادي لتتناول الإنسان قبل المادة.

ثانيا : ردم الهوة الحادة بين التنمية والتربية، والتشديد على تلازمهما من خلال ربط التربية بحاجات الفرد والمجتمع.

لقد قامت التنمية عندنا وفق قناعتنا : "بوجوب سلوك الدول النامية للأسلوب نفسه الذي سلكته الدول الغربية المتقدمة... باعتبار أن ما كان صالحا للدول الغربية في القرون الماضية سيظل كذلك بالنسبة للدول حديثة الاستقلال" (يوسف أحمد إبراهيم 2000 ص 40) 15. وبسبب انفصال التنمية عن التربية جعل الأولى تدار بعقلية لا تطويرية زادت من تحييد التربية وأفرغتها من جوهرها، مما ساعد في بروز ظواهر الفراغ التربوي الذي عانى في ظله الأفراد والمجتمع على السواء.

لأجل ذلك وحتى لا ننسى أن التربية بالنسبة لنا هي : "نتاج المجتمع بقدر ما هي صناعته وخالفته" علينا أن نعمل على رسم سياساتنا التربوية من خلال مناهج وبرامج تعمل على إمداد الفرد الجزائري بعقلية تطويرية بديلا عن عقلية اللا تطويرية التي ظل لعقود يدير بها شؤون حياته، والتي أوجدت مناخا ملائما لتغذية الجدل العقيم، والاختلاف البغيض والتحجر المقيت، وذلك من خلال تضمين التربية الملامح النوعية التالية :

1- **جعلها تربية نقدية** تعمل على تشكيل الفكر النقدي، والتفكير المبدع، والقدرة على حل المشكلات.

2- **جعلها تربية إبداعية** تعيد صياغة المعرفة وإنتاجها.

وهما الملمحان الكفيلان بجعل المدرسة ومناهجها قائمتين على :

- تعويد الفرد على التفكير المنطلق.
- تزويده بالمرونة في التفكير.
- تدريبه على الانفتاح على الخبرات، والامتدادية في المحيط الإنساني.
- تمكينه في نفس الوقت من التفرد وتحقيق الذات.

2 - **التربية والمدرسة :**

عزا بسمارك يوما انتصار بلده ألمانيا في حربها ضد فرنسا ونهضتها الجبارة إلى المدرسة، وقال يومها : " إن الذي انتصر إنما هو المدرسة" وذلك بعد أن استطاع الفيلسوف الشهير فيخته أن يضمن مناهجها وبرامجها مقومات الفعل

التربوي الذي امتد بها متجاوزا الهدف المعرفي البحث. (تركي رابح، 1990 ص 16(46).

ومن منطلق أن المجتمع يجعل من المدرسة صاحبة الحق في "تربية الأطفال والمراهقين وتكوينهم ليصبحوا أنماط حضارتنا ومقتضياتها شبيها أكثر كمالات" (روجيه أسعد، 1993 ص 35) 17، فإننا نتوقع من المدرسة اليوم أن تكون :

مدرسة للقيم وتوجيه السلوك الإنساني ذلك أن التعلم العاطفي يشكل في المدرسة المعاصرة مبدأ في غاية الأهمية، ومن خلال ما لدينا من أدب تربوي ونفسي حول الموضوع، علينا أن نجعل المدرسة وأن نبني برامجها ونرسم مناهجها ضمن نطاق الأسس والمبادئ التالية :

- تحديد الاتجاهات والقيم المرغوب فيها.
- تزويد الطالب بالنماذج الحسنة من خلال (سلوك المعلم، محتويات البرامج، أساليب التدريس...)
- تزويد الطالب بالخبرات التربوية السارة.
- إتاحة فرص الحوار والنقاش والتعاون والتنافس الشريف وتبادل الفكر والرأي واحترامهما.

مدرسة للتكيف النفسي والاجتماعي بحيث لا يكون باعثها الأول وهمها الوحيد نقل المعرفة، وذلك كما أشرنا سابقا أمر سخي في عصر تتضاعف فيه المعرفة الإنسانية خلال سنوات قليلة (قدر للمعرفة أن تتضاعف في نهاية الألفية الثانية خلال كل ست سنوات ومقدرا لها أن تتضاعف بوتيرة أسرع خلال الخمسين سنة القادمة) ، وإنما ينبغي لها أن تعمل على تكيف الفرد بالشكل الذي يحقق الانسجام الكلي والدائم بينه وبين الوسط الذي يتفاعل فيه، ليتقلص الفارق الموجود بين الذاتية والعلم الخارجي "فالتكيف المقصود على هذا النحو يتصف بكونه ضربا من المطابقة مع نمط اجتماعي يتيح للفرد والجماعة أن يقلصوا من توتراتهم حين يجدون أجوبة لتساؤلاتهم في الهيئة الاجتماعية" (روجيه أسعد 1993 ص 37) 18.

مدرسة لتعليم التفكير لا ينحصر همها في نقل وتبليغ ما هو مصمم في البرامج المدرسية بل ينبغي أن يتجاوز تعليمها النمط التكيفي، إلى تعليم نقدي يؤسس للتفكير والإبداع فتصبح التربية "تربية إبداع" تسمح فيها الوظيفة التعليمية.

مدرسة لتكوين الفكر النقدي الحر لا يكون الهدف فيها الحفاظ على ما هو موجود بل ينبغي أن تعمل على "جعل الأفراد ذوي وجود متحقق وأحرار قادرين على الانبعاث، وأن يكونوا أكثر وعيا وإعدادا لمواجهة المجتمع، والوسط الاجتماعي والمهني، لا يضيعون فيه بل يغيرونه. فإلى أي شيء تهدف التربية إن لم

يكن إلى تكوين الحرية والميل إليها وإلى التفكير والحياة" (روجيه أسعد 993 ص 37) 19.

مدرسة يتكامل فيها التعليم مع الإرشاد والتوجيه ذلك أن علم النفس المدرسي بإمكانه إزالة "الفتنة" بين الفرد والمجتمع إذا ما عملت المدرسة على إنماء الفرد وتربيته على الفهم، والحكمة والتحرر، من خلال جعل الوسط المدرسي ورشة للتدرب على الحياة الاجتماعية واكتشافها، وإمداده بعناصر التأثير المباشر في الشخصية الاجتماعية للفرد، وفي سلوكياته وقناعاته وأفكاره وخبراته، وفي التصور الذي سيكونه لنفسه عن العالم والمجتمع من حوله، والصورة التي ستكون لديه للإنسان، ولوضعه بوصفه موجودا مع الآخرين إنها مدرسة إذا ما تحققت بالصورة التي رسمناها ستكون لا محالة :

مدرسة قائمة على تربية اللاعنف تبتعد ممارساتها وسلوكيات الأفراد فيها ومحتويات البرامج وأبعاد المناهج وأشكال الاتصال والتواصل فيها عن السلطوية المولدة للعنف "فالمدرسة-التربية-التي تقصي الحوار هي مدرسة فاشلة، ذلك أن الحوار وحده هو الذي يخلق الفكر النقدي، فإذا غاب الحوار انعدم الاتصال ولم يعد هناك تربية الأمر الذي يتيح التعبير بالوسائل الأخرى... فالحوار يتوقف على حب كبير للعالم وللإنسان وللحياة" (م. مزيان 2002 ص 111) 20.

مدرسة للسلم تحقق الانسجام مع الذات (أعرف نفسك يعرفك الآخرون)، وتمكن من القدرة على التألف "لا خير فيمن لا يألف ويؤلف" (حديث شريف). ذلك أنه لا خلاف في أن ازدهار المجتمع وتطور الأمة، تصنعهما جهود الأفراد ومشاركاتهم، في ظل تعايش يحقق التألف بين التوجهات والآراء، ولا يحاصر الاختلافات أو يضطهدا "فانتعاش الاختلافات داخل المجتمع المتآخي والمتعاون يشعر الجميع بالسلم المنبعث من مظاهر حياة الفرد والجماعة" (ع الحق منصوري، 2002 ص 65) 21.

علينا أن نجعل المدرسة قائمة على تربية السلم كشرط لازم للتنمية، وجعله ثقافة قائمة بذاتها تهيب للمناخ للعمل المبدع "فالتربية هي الوسيلة المؤدية إلى الوعي الذي تقوم المدرسة بنشره، والذي بإمكانه أن يصل بنا إلى السلم، ذلك أن التربية لا بد وأن تؤدي حتما إلى السلم" (م. قمرأوي، 2002 ص 83) 22 السلم القائم على تذوق الجمال والإحساس به، والذي يمكن الفرد من النزوع إلى الإحسان والتمسك به في كل سلوك "فبالذوق الجميل الذي يتطبع فيه فكر الفرد يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل وتوخيا للكرام من العادات" (مالك بن نبي، 1986 ص 83).

من الواجب إذا أن نجعل الثقافة المدرسية ثقافة سلم بإيلاء التربية الفنية والجمالية اهتماما أكبر كما يؤكد المفكر جارودي لضمان إرساء قواعد السلم الثقافي بين أفراد الجماعة الواحدة، وبينها وبين بقية الجماعات اعتمادا على المبادئ التالية :

- 1- جعل التربية عامل التقاء بالآخر وتعارف وتقبل له "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم..." (قرآن كريم).
 - 2- جعل التربية قائمة على صحيح العقل وثابت النقل.
 - 3- فتح المجال واسعا لمشاركة مؤسسات المجتمع كافة في تبليغ رسالة المدرسة.
 - 4- العمل على ترسيخ مبدأ العيش وفق قاعدة "نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه".
 - 5- تعليم الفرد الاحتكام إلى العقل قبل العواطف في الأفعال وردودها.
 - 6- جعل احترام الآخر وتقبله سلوكا قائما على قاعدة "لكم دينكم ولي ديني".
 - 7- التدرج في تربية الفرد وتعليمه مراعاة لخصائصه ولنموه.
 - 8- فتح الممارسات التربوية في المدرسة وفي الصف كما في الأسرة على المناقشة والحوار الهادئ.
 - 9- إكساب الفرد ثقته بنفسه، والعيش ضمن التوافق بين الوعي (الثقافة) والعلم.
 - 10- تربية الفرد على التحكم في الأهواء والانفعالات لضمان صحته النفسية.
- المدرسة المأمولة والمناهج الفاعلة للتنمية المستقبلية :**
- إن مكانة المدرسة في المجتمع المعاصر يجعلها قادرة على تغيير واقعه، وهو عمل تعجز عنه جميع المؤسسات الاجتماعية، ووفق التصور ذاته فإنه ينبغي لمدرستنا أن تعمل ضمن الأبعاد التالية :
- بعد تعليمي يمكن من إعادة صياغة المعرفة وإنتاجها.
 - بعد تربوي يصحح القيم ويوجهها.
 - بعد تثقيفي يعمل على إشاعة الوعي بالحاضر والاستعداد للمستقبل.
- ولن يتأتى لها ذلك إلا إذا نهجت منهجا يجمع إليه أعمدة المعرفة الأربعة كما صاغتها (اللجنة الدولية للتعليم في القرن 21) (DELORS, 1996)، والتي تمثلت في :
- أن يتعلم الفرد كيف يتعلم.
 - وأن يتعلم كيف يعمل.

- وأن يتعلم كيف يعيش مع الآخرين.

فضمن هذا الاتجاه " تطور أساليب اختيار محتوى المنهج الدراسي، بحيث يركز فيه على أساسيات المعرفة وأحدثها في كل علم، وأن يعنى عناية كافية بتكامل فروع المعرفة وتطبيقاتها في بيئة المتعلم وفي مجالات الحياة من حوله" (أليكسو، 2000 ص 18) 23.

إن تعليم مهارات التفكير لا تلقين المعرفة هو ما ينبغي أن تقوم عليه المناهج الدراسية، والاهتمام بهذا التوجه يجعل المدرسة مهتمة بالعمل المنتج، مشجعة على ممارسته بإتقان وإبداع، ليصبح العمل جزءا أساسيا من المناهج الدراسية فيشرب الفرد على حب العمل والتطلع لممارسته.

ولكي يتعلم الفرد كيف يعيش مع الآخرين على المدرسة وهي تقوم بتنشئته الاجتماعية أن تقوم بذلك "على أساس التهذيب والأخلاق الحميدة والسلوك الحسن وحسن التعامل والتفاعل الإيجابي مع الآخرين، بما يمثل مبادئ المجتمع وقيمه وأخلاقه، ليكون التعليم للحياة سلوكا يمارسه ومهارة يتعلمها، ويجد فائدتها في حياته اليومية" (أليكسو 2000 ص 19)، ثم على المدرسة بعد ذلك أن تسعى لمساعدة الفرد على معرفة ذاته وتقبلها وإنماء شخصيته واكتشاف قدراته وتحمل مسؤولياته تجاه نفسه وتجاه الآخرين، من خلال الاستخدام الناجع لبرامج الإرشاد النفسي والاجتماعي، توعية للأفراد بالمشكلات الصحية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية لتتعزيز العلاقة بين المدرسة "التربية" والتنمية من خلال ضمان مشاركة الجميع.

وإذا كان ينبغي مقارنة شمولية العمل التربوي في المجتمع المدرسي، والعمل على تعديل الثقافة المدرسية لتستجيب لمقتضيات العصر بما يحقق الأهداف التربوية من دون قهر ولا إرهاب.

خصائص التربية المستقبلية

أظهرت الدراسات والأبحاث أن شكل المدرسة ونمطها التقليدي في التعليم يقفان حجر عثرة في سبيل تفعيل التنمية (Muchakoji, 1981) وعلى التربية أن تحمل خصائص ومقومات ملائمة للتنمية المنشودة، وقد أكدت الدراسات التي أجرتها منظمة أليكسو على مدار العشرية الأخيرة من القرن الماضي على وجوب اتصاف التربية المستقبلية بخصائص تلبي حاجات الإنسان في المجتمعات العربية والإسلامية إلى النمو الشخصي والاجتماعي والكفاية الاقتصادية والإنتاجية والوعي والمشاركة والفكر النقدي وفرص تحسين نوعية الحياة العامة والتربوية دون الإضرار بالآخرين وبالبيئة. ومن أهم تلك الخصائص أنها تربية :

- دينية، دنيوية.
- شمولية، تكاملية - طبيعية، عملية.
- فردية، جماعية، تفاعلية. - توفيقية. - عملية، خبراتية، نظرية.

- تعبيرية، تواصلية، أدائية. - تركيبية، إنتاجية. - استكشافية، توليدية، ابتكارية.
- تعاونية، تشاركية. - تنوعية، بدائية. تأويلية، تساؤلية، نقدية، تقويمية.
- سيروراتية، نواتجية. - أخلاقية، تمهينية، تفتحية.

وعلى ذلك فإن كل الدراسات التي مست مجالات التطوير التربوي تناولت المدرسة وأدوارها المستقبلية من خلال المداخل التالية :

- 1- الأهداف التربوية وضرورة تفحصها وإعادة صياغتها.
- 2- المقاربة الكلية لشؤون التربية والتعليم في جميع مؤسسات المجتمع المنوطة بذلك.
- 3- سياق التربية والتعليم والذي عليه أن يتحول من صورته الحيادية إلى وضع التفاعل والتفاوض مع السياق الاجتماعي الذي يتم فيه.
- 4- التنشئة الاجتماعية التي تسند بشأنها المدرسة عمل الأسرة والمجتمع، فعليها حينئذ أن تركز على ممارسة السلوك المرغوب فيه.
- 5- البحث التربوي والذي ينبغي أن يتم في إطار ما يعرف "ببحوث الفعل" (Calhonn, 1993).

6- المناهج واستراتيجيات التعليم والتعلم.

7- تطوير الاستراتيجيات.

8- قابلية التعلم.

9- أشكال التقويم.

10- البدائل والوسائط التقنية.

11- الإدارة والإشراف والتدريب.

وأخيرا حين نرسم ملامح التربية المستقبلية يظهر وأنا نحمل المدرسة أمر فشل المشروع التنموي، وقصوره في إحداث النقلة النوعية المأمولة، وبالرغم مما في ذلك من صواب إلا أنه لا يجب أن ينسبنا حقيقة أن المدرسة التي حملناها تبعات الفشل لا تعمل في فراغ، ولا تقوم بالدور من دون اتصال وارتباط بمؤسسات المجتمع الأخرى، وفي عصرنا تغدو وسائل الإعلام "المنهج الأول" للتربية كما يقول (Postman, 1979) ولذلك فالمدرسة التي لا تمثل إلا "المنهج الثاني" مطالبة بالانفتاح على الأولى وتنسيق الجهود معها بهدف رسم الحدود الدنيا للتفاهم والانسجام في العمل التربوي، كما أن الأسرة والمجتمع المحلي بمؤسساته الرسمية وغير الرسمية تشكل هي الأخرى بيئة لتربية الفرد، على المدرسة فتح قنوات للاتصال معها استكمالا لشروط المشاركة الواسعة والواعية في التربية والتعليم.

مراجع

- 1- صبيحي الصالح: منهل الواردين شرح رياض الصالحين، للنووي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- 2- رابح تركي: أصول التربية والتعليم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1990.
- 3- رابح تركي: المرجع نفسه.
- 4- رابح حدوسي: المدرسة والإصلاح، دار الحضارة، الجزائر، 2001.
- 5- اسماعيل المان: مدرسة الغد، الكتاب السنوي، منشورات المعهد الوطني للوثائق التربوية، الجزائر، 2003.
- 6- جلال الدين السيوطي: أسباب ورود الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1984.
- 7- جلال الدين القاسمي: موعظة المؤمنين من كلام سيد المرسلين، دار النفائس بيروت، لبنان، 1981.
- 8- عبد السلام هارون: تهذيب سيرة بن هشام، مؤسسة الرسالة، الكويت، 1986.
- 9- عبد السلام هارون: المرجع السابق.
- 10- أحمد إبراهيم اليوسف: علاقة التربية بالمجتمع ولامحها النوعية، مجلة عالم الفكر، م 29 ع 1، المجلس القومي للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر 2002.
- 11- أحمد إبراهيم اليوسف: المرجع نفسه.
- 12- يزيد عيسى السورطي: السلطوية في التربية العربية، التمييز التربوي في الوطن العربي، المجلة التربوية م 14، 12، ع 24، 53، مجلس النشر العلمي، الكويت، 1999، 1998.
- 13- يزيد عيسى السطوري: المرجع نفسه.
- 14- أسعد روجيه: علم النفس وميادينه، ط2، الدار المتحدة، دمشق، سورية، 1993.

- 15- أحمد إبراهيم اليوسف : المرجع السابق .
- 16- تركي رابح : المرجع السابق .
- 17- أسعد روجيه : مرجع سابق .
- 18- أسعد روجيه : المرجع نفسه .
- 19- أسعد روجيه : المرجع نفسه .
- 20- محمد مزيان : ثقافة السلم، مخبر التربية والتنمية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر 2002 .
- 21- عبد الحق منصوري : السلم وسيلة أم غاية، مخبر التربية والتنمية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر 2002 .
- 22- محمد قمرأوي : التربية والسلم، مخبر التربية والتنمية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002 .
- 23- أليكسو ALICSO : وثيقة استشراف مستقبل العمل التربوي، 2000.
- غياث بوفلجة : دور المدرسة في تدعيم ثقافة السلم، مخبر التربية والتنمية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر 2002 .
- مولاي بودخيلي : نحو استراتيجية تربوية لبناء سلم ثقافي، مخبر التربية والتنمية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر 2002.